نظرات

للاستاذ جورج نقولا عطية

الحياة الباسمة :

لامنى أمس أحد أصدقائى بقوله : إننى أطالع بعض ما تنشره فى الجريدة الفلانية ، والمجلة الفلانية ، واستصوب آراءك ولا أجاريك فى مواضيعك المؤثرة التى تصور فيها الحياة جحيما أرضياً ، وساكنيها لصوصاً وأجلافاً :

أتوق للراحة الكبرى فلم أرها تنال الا على جسر من التعب

استشهدت أولا بهذا البيت كجواب للصديق الناقم ، وأردفت قائلا : فاذن أنت ترى الحياة باسمة ، لأنك لا تنظر اليها الا من وجهها الثانية الخلابة ، المتقلبة ، المرائية ، الضحوكة ! ولكن تلك الوجهة المقابلة لحياتك الباسمة هى أكثر ثباتاً ، وأقل لمعاناً ، وأشد مصائباً لقد شبهتك بذاك الذى يضع عيونه فى ثقب الخرج وراء ظهره ، أما الثقب الثانى فيضع فيه معائب غيره فيراها ، ولكننى نزولا على رغبتك سأحدث قرائى وقارئاتى بين فترة وفترة بمشاهد حياتك الباسمة ، فكن لى بالمرصاد .

الرثاء الحقيق :

كل قول يأتى عن عقيدة راسخة وإيمان حقيق ، يكون قولا مشبعاً بالحكمة الخالدة ، مشفوعاً بالصدق والاخلاص . طالع هذا الرثاء واحكم :

أعلمت من حملوا على الأعواد أرأيت كيف جنا ضياء النادى

جبل هوى لو خر فى البحر اغتدى من وقعه متلاطم الأزباد

هكذا رثى الشريف الرضى ، أبا اسحاق الصابى . فهذا الرثاء يا سادتنا الشعراء لايشابه رثاءكم فى هذه الأيام .

أنتم ترثون الوجيه والغنى والعظيم فتجعلونه فوق الملائكة ، وما هو إلا تحت مقاعد الشياطين . ورثى أحد الشعراء الأقدمين جعفر البرمكى فقال :

علو فى الحياة وفى الممات لعمرى تلك إحدى المعجزات

ومات جعفر مشنوقاً وفى هذا من البلاغة ما فيه .

أمـير الانـكليز :

لانقصد هنا بأمير الانـكليز ، صاحب السمو « البرنس أوف ويلس » ابن جلالة ملك بريطانيا العظمى ، ولـكننا نقصد « الدوس هكسلاى » أمـير الروائيين البريطانيين على الاطلاق .

ولد أمير البيان الانـكليزى فى ٢٦ تموز ١٨٩٤ وتلقى علومه فى مدرسـة « إتون » وجامعة « أوكسفورد . »

وضع الدوس هكسلاى أربع روايات وأشهرها « كروم يلو » التى ترجمت الى الفرنسية بعنوان « جون دى كروم » ورواية « كونتربوان » التى نقلت أيضاً الى الفرنسية مصدرة بمقدمة رائعة من قلم النقاد الفرنسى المعروف « اندريه موروا » الذى يقول : إن شـذوذ هكسلاى ، بالمقارنة بينه وبين الروائيين المعاصرين ، هو بلا مراء بمثابة تراكيبه وتضلعه باللغة تضلعاً كاملا ، فيصور لك الحياة من بين نثره وشـعره تصويراً خلاباً على مثال صورته الحساسة .

وخلاصة رواية « كونتربوان » التى طالعناها بالفرنسية تنحصر فى أن رساماشيخا يموت لكونه أحب الحياة والخلود فيها ، وترى فيما بعد ولده مرتبطاً بعلاقة غرامية مع إحدى « انصاف الفاجرات (Mondaine) وتتعرف أيضا بأحد أبطالها المشابه لموسولينى بالقوة والحزم ، وكل ماتقرأه فى الرواية يدل دلالة واضحة على أن المؤلف هو بلا منازع أمير الانـكليز وترى على غلاف الرواية اسم « الدوس هكسلاى » بقامته النحيلة ونظارتيه غير الحاجبتين لسحر عينيه الهادئتين ، وما يخفيه جبينه من دلائل الذكاء الحاد العجيب .

حكاية :

من حكايات الأقدمين ، أن شابا مر بشيخ فقال له السلام عليك ياسيدى الشيخ . فأجابه وعليك يامن لك الدنيا بأسرها . ومرت خمس سنوات . ثم التقى الاثنان ببعضهما ، فقال الشيخ : يامن لك نصف الدنيا . ومرت سنوات غيرها فالتقيا ، فقال الشيخ : يامن لك ربع الدنيا . ومرت خلافها فالتقيا أيضاً فقال الشيخ للفتى : يامن ليس لك من الدنيا شيء .

والمتنبي يقول ما يقارب هذا المعنى :

ألا ليت الشباب يعود يوما فأخبره بما فعل المشيب

ومعنى كلام الشيخ فى المرة الأولى : أنت شاب فلك الدنيا بأسرها ، ومعنى الثانى : أنت متزوج الآن فليس لك من ملذات الدنيا إلا نصفها . ومعنى الثالث : لقد رزقت أولاداً فأصبحت رجلا مهموما . ومعنى الرابع : لقد أصبحت كهلا ولم يعد لك فى الدنيا إلا الاستعداد للآخرة .

هذه حكاية كنت أسمعها من العجائز فى ليالى الشتاء .

ولكنها حكاية واقعية ، تدفع سامعها للرضوخ لأحكام القدر ، ولتذكر الماضى البعيد ، خصوصاً إذا كان رجلا شيخاً ذا بنين وأحفاد .

توما !

لما قام المسيح (عليه السلام) من الموت وظهر لتلاميذه ، آمنوا بقيامه ماعدا الزنديق توما ، فلم يصدق الا لما وضع اصبعه فى جراحات معلمه الدامية ، ولو علم توما بأن وضع اصبعه سيجر عليه وبالا عظيما لما كان المسكين رضى بذلك ، إذ بات الناس على ممر الاجيال يقولون لكل عنيد وضعيف الايمان : أنت كتوما !

ماهذا الوجود من أول أو آخر فافتكر به وتعجب

ليتنى قد علمت من أين جئنا والى أين بعد حين سنذهب

هذان البيتان وضعهما فيلسوف الفرس الذائع الصيت عمر الخيام ، وعربهما فيلسوف ثان هو السيد الزهاوى المعروف ، والظاهر بأن عمر الخيام كصاحبنا توما .

ولكن توما الذى شهد بعينيه مقدرة معلمه فى المعجزات ، انكر قيامه من الممات ، مع أن الخيام لم يشاهد شيئاً من ذاك ، بل كان يحتسى الخمرة . . ويرى بعد ذاك مشاهد الحياة كرؤى الأحلام .

نرجو من الله جل شأنه ، أن يأتينا اليوم بمعجزات الامس ، لنتمكن من الايمان والاعتقاد بكل أسرار الكائنات .

صيدا (لبنان) جورج نقولا عطية